

## طريق المحبة الصعبة - ٢

### الميتروبوليت جوزيف

#### نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

#### مدخل

في آذار ٢٠٢٣ صدر كتاب للميتروبوليت جوزيف (بوب) مطران أبرشية أوروبا الغربية والجنوبية في الكنيسة الرومانية، بعنوان "طريق المحبة الصعبة"، سوف تصدر ترجمته على فصول في الأعداد المقبلة من التراث الأرثوذكسي.

Source: Le Metropolitte Josphe. La Voie du Difficile Amour. Edition Apostolia. Paris. 2023.

#### عندما تأتي النعمة تمنحنا كل شيء

مغبوطة النفس التي تحب أخاها لأن أخي هو حياتي (القديس سلوان الأثوسي)<sup>١</sup> كثيراً ما نسمع من حولنا نفوساً أحزنتها المعاناة الطويلة، يتجاهلها الجميع، محرومة من فرح الحياة، تقول أن في الكنيسة، في رعييتهم، لم يعد هناك محبة، وأنهم لا يشعرون بالمحبة حتى داخل جماعتهم الرعائية. من الصعب أن نناقض مثل هذا الشخص، خاصة وأن الأناية والفردية في المجتمعات التي نعيش فيها تؤثر أيضاً على حياة جماعاتنا. نحن نعيش في هذا العالم وغالباً ما يتعين علينا أن نظهر بشكل مختلف عما نحن عليه بالفعل أو عما نود أن نكون عليه. الآن "كل واحد من جيراننا"، يكتب القديس بورفيرْيوس، "كل واحد من أقربائنا هو لحم من لحمنا! هل من الممكن أن أظهر اللامبالاة تجاهه؟ أو أتسبب له بالمرارة؟ أو أن أكرهه؟" هذا هو السؤال الذي يطرحه علينا المسيح في الإنجيل: إذا كنت أستطيع أن أدعي أنني له، ألا أرى من هو بجاني؟ هل أستطيع إيقاف أفكاره عن مكانه طوال اليوم؟ أستطيع أن أصلي إلى الرب ليساعده ويشفيه؟ هل أستطيع، على الرغم من ضعفاي وعيوبي، أن أذهب لمقابلته بوجه مشرق ومبتسم، وأعرف الصعوبات التي يمر بها، وأتعاطف معه، أي أن أحمل عبئه معه؟ يتابع القديس بورفيرْيوس: "ما يجب أن يشغلنا، يا أبنائي، هو محبة الآخر، إنها روحه. كل ما نقوم به، من صلاة وإرشاد ووصايا، فلنفعله بمحبة. بدون المحبة لا تنفع الصلاة، والإرشاد يؤدي، والوصية تضر الآخر وتدمره. إن هذا الآخر يشعر، في الواقع، إذا كنا نحبه أو لا نحبه، ويتفاعل على أساس ذلك. محبة محبة محبة! إن محبة أخينا تهيئنا لأن نحبه المسيح أكثر. أليس الأمر حلواً؟"<sup>٢</sup> إذًا، إن لم نجد الشجاعة لسلوك هذا الطريق، فلنتذكر أن المسيح قد سلكه ولا يزال يسير عليه باستمرار من أجلنا، وقد أعطانا القوة لنتبعه أيضاً. "من السهل جداً أن نصل إلى هذه النقطة. يتطلب الأمر حُسن النية؛ لهذا السبب فإن الله مستعد أن يدخل فينا. فهو يقرع الباب ويجدد كل شيء، كما يقول في رؤيا يوحنا. ويتغير تفكيرنا إذ يتحرر من الشر، فيصبح أفضل وأقدس وأكثر مرونة [...] لكي نجعل أنفسنا مستحقين له، يجب أن نموت حسب الإنسان العتيق، حتى لا نموت مرة أخرى أبداً. عندها نعيش في

<sup>1</sup> Archimandrite Sophrony, Saint Silouane l'Athonite ( 1866-1938 ) Vie, doctrine et écrits, Cerf, 2010, p. 355.

<sup>2</sup> Cf. Eph 5, 30.

<sup>3</sup> Saint Porphyre , Vie et paroles, d'Homme , Lausanne, 2009, p.233.

<sup>4</sup> Ibid., p.235.

<sup>5</sup> Cf. Apoc 3, 20-21, 5.

المسيح، مندمجين في جسد الكنيسة بأكمله. هكذا تأتي نعمة الله. وعندما تأتي النعمة، فإنها تعطينا كل شيء.<sup>٦</sup>

### الفن الكبير

"عَبْدُكَ أَنَا. فَهَمَّيْنِي فَأَعْرِفَ شَهَادَاتِكَ" (مزمو ١١٧: ١٢٥).

هناك العديد من المشاكل اليومية التي نواجهها حتى في الكنيسة. نتوقع أن تكون مختلفة هنا عن تلك التي نواجهها في المجتمع (الذي نحن جزء منه أيضاً) وفي ما يتعلق به. نحن ببساطة نتوقع من الإنسان أن يكون أفضل، وأن يظهر أفضل ما لديه، وأن يحارب فقط من خلال إظهار الخير فيه، لكننا ننسى - ما هو المهم على وجه الخصوص - أننا نأتي إلى المسيح والكنيسة كما نحن مع كل مشاكلنا. وفي كثير من الأحيان نشعر بالإحباط ونضع علاقتنا مع المسيح - الذي جسده الكنيسة - على أساس علاقتنا مع الآخرين.

لكن "الإصرار على أن يصبح الآخرون صالحين"، يكتب القديس بورفير يوس، "ما هو إلا وسيلة لدفع أنفسنا إلى الأمام. وفي الواقع، هذا غير ممكن لنا، نحن نطالب به الآخرين ونصرُّ على هذه النقطة. إلى هذا، بينما يمكن إصلاح كل شيء بالصلاة، نحن نحزن، ونغضب، ونتهم الآخرين! يمكن للقريب أحياناً أن يقَدِّسنا ويقربنا من المسيح. ولكنه أيضاً يمكن أن يصدمننا ويجعلنا نتعثر أو يبعدنا عن المسيح. إذا كنا في الحالة الأولى، فلنشكر الرب لأنه جعلنا نعبر طريق من ينير طريقنا نحوه. أما إذا كنا في الحالة الثانية، فلنحاول أن نكون في علاقة شخصية مع المسيح، الذي لن يخيبنا أبداً إذا قبلنا الصليب وتبعناه. "المسيحي لطيف"، يتابع القديس بورفير يوس. يجب أن نفضِّل أن نكون ضحايا الظلم عندما يتغلغل فينا الخير والمحبة، فننسى الشر الذي حدث لنا. وهنا يكمن السر. عندما يأتي الشر من مكان بعيد لا يمكنك تجنبه. لكن الفن العظيم يكمن في التعامل معه بازدراء. بنعمة الله حتى وإن رأيت فلن تتأثر، بل تمتلئ نعمة!<sup>٧</sup>

المجنون لم يأت به أحد إلى المسيح؛ ومع أنه كان ممسوساً بالكامل، إلا أنه اقترب ونال محبة المسيح ونعمة الشفاء وصار رسول محبة متجسداً، معترفاً للعالم بما صنعه الله من خير. "هذا هو التمييز الذي يجب أن تكتسبه خلال حياتك. تعمق في كل نقطة مهما كانت، ولا تنظر إلى كل شيء بطريقة سطحية. إن لم نتحرك نحو المسيح، إن لم نظهر الصبر، إن كنا نتألم بدون مبرر، نكون في عذاب مستمر. السر هو مقاربة جميع المواقف من زاوية الروح"<sup>٨</sup>

### الوفر الروحي الصغير

"لأنَّ مَنْ لَهُ سَبُعُطَى، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي يَطْنُهُ لَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ" (لوقا ٨: ١٨).

نحن نعيش في زمن يمكن فيه فقدان الإيمان بسهولة. إن الإغراءات من الخارج، من العالم، تصل إلينا بسهولة شديدة، أحياناً في الأماكن النائية والخفية، من خلال وسائل الاتصال الحديثة. وعندما نعتقد أن لدينا القليل من السلام، والقليل من الصلاة، والتفكير في الله، والقليل من الفرح الروحي، قد نسمح لأنفسنا بالوقوع في فخاخ العالم الخارجي، فنفقد هذا القليل الذي نملكه أو نعتقد أننا نملكه.

ولكن في الوقت نفسه، تطورت إمكانية التواصل فيما بيننا بمعنى ما هو خير، وما هو حقيقي، والخبرة التي يمكننا أن نتبادلها مع بعضنا البعض، والإيمان الذي يمكننا التحدث عنه بحرية كاملة. يمكننا أن نمي

<sup>6</sup> Saint Porphyre, Vie et paroles, ibid., p. 234.

<sup>7</sup> Saint Porphyre, Vie et paroles, ibid., p. 240.

<sup>8</sup> Ibid., p. 237.

<sup>9</sup> Cf. Lc 8, 26-39.

<sup>1</sup> Saint Porphyre, Vie et paroles, ibid., p.237.

النعمة الموجودة في نفوسنا من خلال خبرة وإيمان الآخرين، وهي حقائق يمكننا أن نعرفها بسهولة اليوم. أحياناً نتقبل ما يختبره الآخرون وأحياناً نرفضه.

نحن نتمرد على الشكل الذي يتخذه ما يبدو لنا للوهلة الأولى أنه غير مثير للاهتمام أو محظور. فلنحرص إذًا على الإصغاء والترحيب بالدعوة التي يسمعها الرب في نفوسنا، لأن "الرجل الذي يحب الله يسعى دائماً إلى الاستنارة من فوق، ويعطي أذنه الداخلية باستمرار لصوت الله"،<sup>١</sup> يكتب القديس صفروني.

لنستقبل بذار النعمة لا على قلب متحجر، بل على تربة طيبة مضيافة، على قلب حساس، لأن "للتواضع تُمنح نعمة"، كما يقول القديس إسحق.<sup>٢</sup> إن نعمة الله وصوته يأتیان أحياناً من داخل أنفسنا، وأحياناً من المحيطين بنا وما يختبرونه.

فلنميز كل شيء، لنر ما ذا وبمن يزرع المسيح دعوته فينا في الزمن الذي نعيش فيه، حتى لا نفقد بيضة العش الروحية الصغيرة التي جمعناها، بل نزيدها.

### هُوَذَا الْآنَ وَقْتُ مَقْبُولٍ

"من أجل المسيح، تصبح النعمة طعاماً للجوع وشراباً لحولاً للعطاش ولباساً للبردانيين وراحة للمتعبين وقيناً كاملاً للذين يصلون وعزاءً للباكين" (مرقس الناسك).<sup>٣</sup>

إن أبواب الصوم المباركة تنفتح أمامنا كل عام، أبواب الصلاة والتوبة، التي تتيح لنا الوصول، وتهيئنا للفهم الروحي لما يعانیه المسيح ابن الله معنا ولأجلنا، وما ينقله لنا من خلال قيامته. يرسم الصوم أمامنا صورة التخلي والنسك والألم مع المسيح، ويخفي في سر الصليب نور القيامة والتحرر من الموت الذي إليه نتجه معه. يمكننا أن نقيم لأنفسنا امتناعات عديدة في هذا الوقت المبارك من الصوم المقدس، ولكن قبل كل شيء، من المناسب أن نفحص نفوسنا لنقرأ جراحاتها.

يشفي الصوم جراحنا إذ يمنحنا الفرصة لتقديم الصدقات المرتبطة به. الصدقات، سواء كانت روحية أو مادية، تقربنا من المسيح الرحوم، الذي يتماثل مع المحتاجين. نحن بحاجة إلى مغفرة الله التي تعيد لنا حريتنا الداخلية. ولكن إن لم نغفر لمن أساء إلينا، فإننا نفشل في الاقتراب من المسيح الذي جاء ليحمل إلينا مغفرة الآب. كما أن الصوم هو فرصة لنا لنكثر من الصلاة بكل تواضع، متوسلين إلى المسيح – السامري الرحيم – أن يضمّد جراحاتنا.

"كما أن صحة العيون تثير الرغبة في رؤية النور، كذلك الصوم الذي يمارس بتمييز يثير الرغبة في الصلاة"، يكتب القديس إسحق.<sup>٤</sup> إن فرح الصوم يكون في شفائنا من الصراع الداخلي الذي نخرج منه مهزومين، لأننا في الصوم وفي الصلاة وفي العطاء وفي الغفران نلتقي المسيح. "بمجرد أن يبدأ الإنسان بالصيام، يشعر في أفكاره بالرغبة في التحدث مع الله. إن الجسد الصائم لا يتحمل أن يبيت الليل كله نائماً على فراشه".<sup>٥</sup> من محبته لنا، نحن البشر، يصير الله شريكاً في حالتنا البشرية، ليجعلنا نسكن معه في الحقائق السماوية.

<sup>1</sup> Saint Silouane l'Athonite, ibid., p. 77.

<sup>2</sup> Discours ascétiques, 37, 2.

<sup>3</sup> Marc l'Ascète, « De ceux qui peñsent être justifiés par les œuvres », 117, in Philocalie, vol. I, DDB-Lattès, 1995, p. 167.

<sup>4</sup> Saint Isaac le Syrien, Discours ascétiques, ibid., 85, 16.

<sup>5</sup> Ibid. 85, 17.